الباب الثانى

موقف المفسرين من الآيات الكونية فى القرآن الكريم

الباب الثانى
موقف المفسرين من الآيات الكونية فى القرآن الكريم

طال الجدل حول جواز تفسير الإشارات الكونية الواردة فى كتاب الله على أساس من معطيات علوم العصر وفنونه، وتفاوتت مواقف العلماء من ذلك تفاوتًا كبيرًا بين مضيّقين وموسّعين ومعتدلين، مما يمكن أن نوجزه فيما يلى :

أولاً: موقف المضيقين

وهو الموقف الذى يرى أصحابه أن تفسير الآيات الكونية الواردة فى كتاب الله، على ضوء ما تجمع لدى الإنسان من معارف هو نوع من التفسير **بالرأى** - الذى لا يجوز - استنادًا إلى أقوال منسوبة لرسول الله ﷺ منها: **«من قال فى القرآن برأيه فأصاب فقد أخطأ»**[1] و**«من قال فى القرآن بغير علم فليتبوأ مقعده من النار»**[2]. واستنادًا إلى أقوال منسوبة إلى كل من الخليفتين الراشدين: أبى بكر الصديق وعمر ابن الخطاب - رضى الله تعالى عنهما - من قول الأول: **«أىّ سماء تظلنى، وأى أرض تقلنى إن قلت فى كتاب الله برأيى؟»** وقول الثانى: **«اتبعوا ما تبيّن لكم من هذا الكتاب فاعملوا به، وما لم تعرفوه فكلوه إلى ربه»**. وكذلك استنادًا إلى قول كل من سعيد بن المسيب وعبد الله بن عمر - رضى الله عنهما - فى الصحيح المنقول عن الأول: «إنا لا نقول فى القرآن شيئًا»، وإلى الثانى: «لقد أدركت فقهاء المدينة وإنهم ليعظمون القول فى التفسير». واستنادًا أيضًا إلى القول المنسوب إلى مسروق بن الأجدع رضى الله عنه: «اتقوا التفسير، فإنما هو الرواية عن الله».

---

(١) الترمذى فى «سننه» رقم (٢٩٥٠ و٢٩٥١)، وأحمد فى «مسنده» (١/ ٢٣٣).

(٢) التخريج السابق.

ولقد فات أصحاب هذا الموقف أن المقصود بـ(الرأى) فى الحديث هو (الهوى)، لا الرأى المنطقى المبنى على الحجة الواضحة والبرهان المقبول، ويؤكد ذلك عبارة «بغير علم» التى وردت فى الحديث الثانى (هذا بغضّ النظر عن كون الحديثين قد اعتبرا من ضعاف السند). كذلك فاتهم أن ما قد ورد على لسان بعض الصحابة والتابعين مما يَوحى بالتحرّج من القول فى القرآن الكريم بالرأى الاجتهادى، إنما هو من قبيل الورع، والتأدب فى الحديث عن كلام الله، خاصة وأنهم كانوا قد فطروا على فهم اللغة العربية، وفطنوا بها وبأسرارها، ودرجوا على عادات المجتمع العربى، وألّموا بأسباب النزول، وعايشوا رسول الله ﷺ عن قرب وهو الموصول بالوحى، وسمعوه ﷺ وهو يتلو القرآن الكريم ويفسّره، واستعانوا به على فهم ما وقفوا دونه، وأدركوا تفاصيل سنته الشريفة، فهل يمكن لمن توافر له كل ذلك أن يكون له مجالٌ للاجتهاد بالرأى؟ خاصة وأن العصر لم يكن عصر تقدم علمى كالذى نعيشه، وأنهم كانوا لا يزالون قريبى عهد بالجاهلية التى كان قد خيّم فيها على العالم أجمع ركام من العقائد الفاسدة، والتصورات الخاطئة، والأفكار السقيمة، والأوهام والأساطير، ولم يسلم من ذلك الركام أحد، حتى أصحاب الحضارات البائدة. وأن العصر كان عصر انتشار للإسلام، ودخول الكثيرين من أصحاب العقائد واللغات الأخرى فى دين الله أفواجًا، ومعهم خلفياتهم الفكرية الموروثة، والتى لم يكونوا قد تمكنوا من التخلص منها كلية بمجرد دخولهم فى دين الله، وأن أعداداً غير قليلة من غلاة اليهود كانوا قد دخلوا الإسلام - كما دخل أسلافهم إلى دين عيسى ابن مريم - ليأتمروا به ويتآمروا عليه، ويكيدوا له بتأويل كلام الله على وجوه غير صحيحة، وبتفتيت وحدة صف المؤمنين بالله (تعالى)، وبث بذور الفرقة فيه، وكان من نتائج ذلك كله هذا الفكر الغريب الذى عرف فيما بعد بـ«الإسرائيليات» نسبة إلى السلالات الفاسدة من بنى إسرائيل (أى اليهود) الذين كثر دسّهم على دين الله، وعلى أنبيائه ورسله - صلى الله وسلم وبارك عليهم أجمعين - ، وكان من نتائجه كذلك بروز الشيع والفرق والطرائق المختلفة، ومحاولة كل فرقة منها الانتصار لرأيها بالقرآن. . وهذا هو (الهوى) الذى عُبّر عنه «بالرأى» فيما نُسب من أقوال إلى رسول الله ﷺ وإلى عدد من صحابته وتابعيهم - عليهم رضوان الله أجمعين.

كذلك فقد فات هؤلاء، وهم ينادون بعدم الاجتهاد بالرأى فى فهم كتاب الله، والوقوف عند حدود المأثور: وهو ما نقل عن رسول الله ﷺ مباشرة، أو عن صحابته الكرام، أو عمن عاصر الصحابة من التابعين، موكلين ما لم يفسره التراث المنقول إلى الله وهو ما عرف بمنهج **التفسير بالمأثور أو التفسير بالمنقول**، وكلنا يعلم أن التفسير بالمأثور لم يشمل القرآن كله، فلحكمة يعلمها الله ـ وقد ندرك طرفًا منها اليوم ـ لم يقم رسول الله ﷺ بالتنصيص على المراد فى كل آية من آيات القرآن الكريم، وأن صحابته الكرام كانوا يجتهدون فى فهم ما لم ينص عليه، وكانوا يختلفون فى ذلك ويتفقون، وأن الثابت أنه ﷺ قد صوب رأى جماعة من أصحابه حين فسروا آيات من كتاب الله، وأنه قد دعا لابن عباس بقوله: «**اللهم فقهه فى الدين، وعلمه التأويل**»(1)، وأن ذلك وغيره من الأقوال المأثورة قد اتخذ دليلاً على جواز الاجتهاد فى التفسير فى غير ما حدده رسول الله ﷺ، فمما يروى عن الإمام على ـ رضى الله عنه ـ حين سئل: هل خصكم رسول الله ﷺ بشىء؟ أنه قال: «ما عندنا غير ما فى هذه الصحيفة، وفهم يؤتاه الرجل فى كتابه»(2). وهذا يؤكد أن فهم المسلمين لدلالة آيات القرآن الحكيم وتدبر معانيها ضرورة تكليفية لكل قادر عليها مؤهل للقيام بها، وذلك يقرره الحق ـ تبارك وتعالى ـ فى قوله، وهو أحكم القائلين:

﴿**كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِّيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُوا الأَلْبَابِ**﴾ [ص: ٢٩].

وهذه الآية الكريمة ـ وكثير غيرها من الآيات القريبة فى المعنى ـ أمر صريح من الله ـ تبارك وتعالى ـ بتدبر آيات القرآن الكريم وفهم معانيها، فالقرآن ينعى على أولئك الذين لا يتدبرونه، ولا يستنبطون معانيه، وهذه آياته تقول:

﴿**أَفَلا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلافًا كَثِيرًا (٨٢) وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ الأَمْنِ أَوِ الْخَوْفِ أَذَاعُوا بِهِ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَىٰ أُوْلِي الأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنبِطُونَهُ مِنْهُمْ**﴾ [النساء: ٨٢ ـ ٨٣].

---

(١) البخارى فى «صحيحه» (١٤٣)، ومسلم فى «صحيحه» (١٣٨/ ٢٤٧٧).

(٢) مسلم فى «صحيحه» (٤٥/ ١٩٧٨).

وتقول: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾ [محمد: ٢].

وقد ساق الإمام الغزالى ـ رحمه الله ـ الأدلة على جواز فهم القرآن بالرأى ـ أى بالاجتهاد ـ ثم أضاف: «فهذه الأمور تدل على أن فى فهم معانى القرآن مجالاً رحبًا، ومتسعًا بالغًا، والمنقول من ظاهر التفسير ليس منتهى الإدراك فيه».

وبناء على ذلك فقد أجاز الغزالى لكل إنسان أن يستنبط من القرآن بقدر فهمه وحد عقله، ولو أن المبالغة فى استخدام تلك الرخصة قد أفرزت نتاجًا لم يكن كله مستساغًا مقبولاً لدى العلماء، مطابقًا لمقاصد الآيات القرآنية الكريمة فى الهداية، فقد خرج قوم من المفسرين بالآيات القرآنية ـ إما عن عمد واضح أو جهل فاضح ـ إلى ما لا يقبله العقل القويم، والصحيح المنقول عن رسول الله ﷺ وعن أصحابه والتابعين لهم، وعن المنطق اللغوى وأساليب العرب فى الأداء ـ حقيقة ومجازًا ـ وذلك لانطلاق الفرق المختلفة والمذاهب المتنوعة من غير أهل السنة والجماعة من منطلق التعصب لمذاهبهم ومحاولاتهم إخضاع التفاسير لخدمة مللهم ونحلهم، مما أدى إلى الموقف المتشدد من القول فى القرآن بالرأى، ومن ثم رفض تفسير الآيات الكونية الواردة فى كتاب الله على أساس من معطيات المعارف المكتسبة فى حقل العلوم البحتة والتطبيقية.

وهناك أعداد كبيرة من علماء المسلمين الذين اقتنعوا بضرورة الاجتهاد فى تفسير كتاب الله، ولكنهم حصروا ذلك فى مناهج محددة منها: **المنهج اللغوى** الذى يهتم بدلالة الألفاظ وطرائق التعبير وأساليبه والدراسات النحوية المختلفة، **والمنهج البيانى** الذى يحرص على بيان مواطن الجمال فى أسلوب القرآن ودراسة الحس اللغوى فى كلماته، **والمنهج الفقهى** الذى يركز على استنباط الأحكام الشرعية والاجتهادات الفقهية. كما أن من هؤلاء المفسرين من نادئ بالجمع بين تلك المناهج فى منهج واحد عرف باسم **المنهج الموسوعى** (**أو المنهج الجمعى**)، ومنهم من نادى بتفسير القرآن الكريم حسب الموضوعات التى اشتمل عليها، وذلك بجمع الآيات الواردة فى الموضوع الواحد فى كل سور القرآن الكريم، وتفسير واستنباط دلالاتها استنادًا إلى قاعدة أن القرآن يفسر بعضه بعضًا، وقد عرف ذلك باسم **المنهج الموضوعى** فى التفسير.

من مبررات المضيقين فى رفض المنهج العلمى للتفسير

ظل المنهج العلمى فى التفسير مرفوضًا من بعض المجتهدين، وذلك لأسباب كثيرة منها:

١ ـ أن الإسرائيليات كانت قد نفذت أول ما نفذت إلى التراث الإسلامى عن طريق محاولة السابقين تفسير تلك الإشارات الكونية الواردة فى كتاب الله على أساس مما جاء فى سفر التكوين من العهد القديم، وهذا خطأ كبير لأن الله ـ تعالى ـ قد شاء أن يوكل الناس فى أمور الكشف عن حقائق هذا الكون إلى جهودهم المتتالية جيلاً بعد جيل، وعصرًا بعد عصر.. ومن هنا جاءت الإشارات الكونية فى القرآن الكريم بصيغة مجملة، يفهم منها أهل كل عصر معنى من المعانى، وتظل تلك المعانى تتسع باستمرار مع اتساع دائرة المعرفة الإنسانية فى مجال العلوم البحتة والتطبيقية وذلك فى تكامل لا يعرف التضاد.

ومن هنا أيضًا لم يقم رسول الله ﷺ بالتنصيص على المراد من الآيات الكونية فى أحاديثه الشريفة، التى تناول بها شرح القرآن الكريم. ولكن لما كانت النفس البشرية تواقة دومًا إلى التعرف على أسرار هذا الوجود، ولما كان الإنسان قد شغل منذ القدم بتساؤلات كثيرة عن نشأة الكون، وبداية الحياة، وخلق الإنسان ومتى حدث كل ذلك؟ وكيف تم؟ وما أسبابه؟ وغير ذلك من أسرار الوجود.. فقد تجمع لدى البشر فى ذلك تراث ضخم، عبر التاريخ اختلط فيه الحق بالباطل، والواقع بالخيال، والعلم بالدجل والخرافة، وكان أكثر الناس حرصًا على هذا النوع من المعرفة المكتسبة هم رجال الدين فى مختلف العصور، وقد كانت الدولة الإسلامية فى أول نشأتها محاطة بحضارات عديدة تباينت فيها تلك المعارف وأمثالها، ثم بعد اتساع رقعة الدولة الإسلامية واحتوائها لتلك الحضارات المجاورة، وبعد دخول أمم من مختلف المعتقدات السابقة على بعثة المصطفى ﷺ إلى دين الله.. وبعد وصول هذا التراث إلى عدد من علماء المسلمين وقيامهم على ترجمته ونقده والإضافة إليه، حاول بعض المفسرين الاستفادة به فى شرح الإشارات الكونية الواردة بالقرآن الكريم فأخطأوا فى ذلك؛ لأن العصر لم يكن بعصر تطور علمى كالذى نعيشه اليوم، ولأن هذا التراث كان أغلبه فى أيدى اليهود، وهم الذين

تآمروا على الكيد للإسلام منذ بزوغ فجره، كما تآمروا على رسالات أنبياء الله موسى، وداود وعيسى من قبل وأن النقل من اللغات الأخرى إلى العربية قد تم بواسطة من أسلم ومن لم يسلم منهم، على الرغم من تحذير رسول الله ﷺ بقوله: «**إذا حدثكم أهل الكتاب فلا تصدقوهم ولا تكذبوهم، فإما أن يحدثوكم بحق فتكذبوه، وإما أن يحدثوكم بباطل فتصدقوه**»[1].

ويفسر ابن خلدون أسباب نقل هذه الإسرائيليات إلى كتب التاريخ والتفسير بقوله: «والسبب في ذلك أن العرب لم يكونوا أهل كتاب، ولا علم، وإنما غلبت عليهم البداوة والأمية، وإذا تشوقوا إلى معرفة شيء مما تتشوق إليه النفوس البشرية: في أسباب المكونات، وبدء الخليقة، وأسرار الوجود، فإنما يسألون عنه أهل الكتاب قبلهم، ويستفيدون منهم، وهم أهل التوراة من اليهود، ومن تبع دينهم من النصارى، وأهل التوراة الذين بين العرب يومئذ وهم بادية مثلهم لا يعرفون من ذلك إلا ما تعرفه العامة من أهل الكتاب، ومعظمهم من حمير الذين أخذوا بدين اليهودية، فلما أسلموا بقوا على ما كان عندهم مما لا تعلق له بالأحكام الشرعية التي يحتاطون لها. .».

٢ ـ أن القرآن الكريم هو في الأصل كتاب هداية ربانية، كتاب عقيدة وعبادة وأخلاق ومعاملات، بمعنى أنه هو كتاب دين الله الذي أوحى به إلى خاتم أنبيائه ورسله ـ صلى الله وسلم وبارك عليه وعليهم أجمعين ـ، وتعهد الله ـ تعالى ـ بحفظه فحفظ، فعلى ذلك لا بد من التأكيد أن القرآن الكريم ليس كتاب علم تجريبي، وأن الإشارات العلمية التي وردت به جاءت في مقام الإرشاد والموعظة لا في مقام البيان العلمي بمفهومه المحدد، وأن تلك الإشارات ـ على كثرتها ـ جاءت في أغلب الأحيان مجملة، وذلك بهدف توجيه الإنسان إلى التفكر والتدبر وإمعان النظر في خلق الله لا بهدف الإخبار العلمي المباشر.

٣ ـ أن القرآن الكريم ثابت لا يتغير بينما معطيات العلوم التجريبية دائمة التغير والتطور وأن ما تسمى بحقائق العلم ليست سوى نظريات وفروض يبطل منها اليوم ما كان سائدًا بالأمس، وربما في الغد ما هو سائد اليوم، وانطلاقًا من هذا الفهم فإنه لا يجوز الرجوع إليها عند تفسير كتاب الله العزيز؛ لأنه لا يجوز تأويل الثابت بالمتغير.

---

(١) أحمد في «مسنده» (٤/ ١٣٦).

٤ ـ أن القرآن الكريم هو بيان من الله، بينما معطيات العلوم التجريبية لا تعدو أن تكون محاولة بشرية للوصول إلى الحقيقة، ولا يجوز ـ فى ظنهم ـ رؤية كلام الله فى إطار محاولات البشر، كما لا يجوز الانتصار لكتاب الله بمعطيات العلوم المكتسبة؛ لأن القرآن الكريم بصفته كلام الله هو حجة على البشر كافة، وعلى العلم وأهله.

٥ ـ أن العلوم التجريبية تُصاغ فى أغلب دول العالم اليوم صياغة تنطلق كلها من منطلقات مادية بحتة، تنكر أو تتجاهل الغيب، ولا تؤمن بالله، وأن للكثيرين من المشتغلين بالعلوم الكونية البحتة والتطبيقية مواقف عدائية واضحة من قضية الإيمان بالله ـ تعالى ـ وبملائكته وكتبه ورسله، وبالقدر خيره وشره، وبحياة البرزخ، وبالبعث والنشور، والحساب، وبالحياة الخالدة فى الدار الآخرة، إما فى الجنة أبدًا وإما فى النار أبدًا.

٦ ـ أن بعض معطيات العلوم التجريبية قد يتباين مع عدد من الأصول الثابتة فى الكتاب والسنة نظرًا لصياغتها من منطلقات مادية بحتة منكرة لكل حقائق الغيب أو متجاهلة لها.

٧ ـ أن عددًا من المفسرين الذين تعرضوا لتأويل بعض الإشارات الكونية الواردة فى كتاب الله قد تكلفوا فى تحميل الآيات من المعانى ما لا تحتمله، فى تعسف واضح وتكلف مفتعل بلَىِّ أعناق الكلمات والآيات وتحميلها من المعانى ما لا تحتمله.

الرد على الرافضين للمنهج العلمى فى التفسير

من الواضح أن حجج المعارضين للمنهج العلمى فى تفسير الآيات الكونية الواردة فى كل من كتاب الله وسنة رسوله ﷺ والتى أوردناها فى الفقرات السابقة هى كلها حجج مردودة حجة بحجة كما يلى:

١ ـ أنه لا حاجة بنا اليوم إلى الإسرائيليات فى تفسير الإشارات الكونية الواردة فى كل من كتاب الله وسنة رسوله ﷺ؛ لأن الرصيد العلمى فى مختلف المعارف قد بلغ اليوم شأوًا لم يبلغه من قبل، وإذا كان من استخدم الإسرائيليات فى تفسيره من الأوائل قد أخطأ التفسير، فإن من يستخدم حقائق العلم الثابتة، ومشاهداته المتكررة فى شرح تلك الآيات اليوم لابد وأن يصل إلى فهم لها لم يكن من السهل

الوصول إليه من قبل، وأن يجد فى ذلك من السبق العلمى للقرآن الكريم ولسنة خاتم الأنبياء والمرسلين (صلى الله وسلم وبارك عليه وعليهم أجمعين)، ومن صور الإعجاز فيهما ما لم يجده السابقون، تأكيدًا لوصف رسول الله ﷺ للقرآن بأنه **«لا تنقضى عجائبه ولا يخلق عن كثرة الرد[1]»**، ولوصف أحاديثه الشريفة بقوله: **«أوتيت الكتاب ومثله معه»** [2].

٢ ـ أنه لا تعارض البتة بين كون القرآن الكريم كتاب هداية ربانية، وإرشادات إلهية، ودستور عقيدة وعبادة وأخلاق ومعاملات، وكتاب تشريع سماوى يشمل نظامًا كاملاً للحياة، وبين احتوائه على عدد من الإشارات العلمية الدقيقة التى وردت فى مقام الاستدلال على عظمة الخالق وقدرته فى إبداعه للخلق، وعلى إفناء ما قد خلق، وإعادة كل ذلك من جديد؛ وذلك لأن الإشارات تبقى بيانًا من الله ـ خالق الكون ومبدع الوجود ـ فلا بد وأن تكون حقّا مطلقًا؛ لأنه لا أدْرَى بالخليقة من الخالق ـ سبحانه وتعالى.

ولو أن المسلمين وعوا هذه الحقيقة منذ القدم لكان لهم فى مجال الدراسات الكونية سبق ملحوظ، وثبات غير ملحوق، فنحن ندرك اليوم ـ وفى ضوء ما تجمع لنا من معارف فى مجال دراسات العلوم البحتة والتطبيقية ـ أن الإشارات الكونية فى كتاب الله تتسم بالدقة المتناهية فى التعبير، وبالشمول فى المعنى، والاطراد والثبات فى الدلالة، وبالسبق لكثير من الكشوف العلمية بالمئات من السنين، وفى ذلك شهادة قاطعة لا يستطيع أن ينكرها جاحد بأن القرآن الكريم لا يمكن أن يكون إلا كلام الله الخالق. والحكم هنا ينسحب على الإشارات الكونية فى أحاديث رسول الله ﷺ والتى تشهد له بالنبوة والرسالة وبأنه ـ عليه الصلاة والسلام ـ كان موصولاً بالوحى ومُعَلَّمًا من قبل خالق السموات والأرض.

أما القول بأن تلك الإشارات قد تم سردها بصورة مجملة، فإنها بحق إحدى صور الإعجاز العلمى والبيانى فى القرآن الكريم؛ وذلك لأن كل إشارة علمية

---

(١) سبق تخريجه ص (١٤).

(٢) شرح السنة ١/ ٢٠١.

وردت فيه قد صيغت صياغة فيها من إعجاز الإيجاز، والدقة فى التعبير، والإحكام فى الدلالة، والشمول فى المعنى ما يمكن الناس - على اختلاف ثقافاتهم وتباين مستويات إدراكهم وتتابع أجيالهم وأزمانهم - أن يدركوا لها من المعانى ما يتناسب، وهذه الخلفيات كلها، بحيث تبقى المعانى المستخلصة من الآية الواحدة يُكمل بعضها بعضًا فى تناسق عجيب. . وتكامل أعجب؛ لأنه تكامل لا يعرف التضاد وهذا عندى من أروع صور الإعجاز فى كتاب الله. فالإجمال فى تلك الإشارات مع وضوح الحقيقة العلمية للأجيال المتلاحقة، كل على قدر حظه من المعرفة بالكون وعلومه، هو بالقطع أمر فوق طاقة البشر، وصورة من صور الإعجاز لم تتحقق ولا يمكن أن تتحقق لغير كلام الله الخالق، ومن هنا كان فهم الناس للإشارات العلمية الواردة بالقرآن الكريم على ضوء ما يتجمع لديهم من معارف، فهمًا يزداد اتساعًا وعمقًا جيلاً بعد جيل، وهذا فى حد ذاته شهادة للقرآن الكريم بأنه لا تنتهى عجائبه ولا يبلى على كثرة الرد، كما وصفه المصطفى ﷺ. وقد أدرك نفر من السابقين ذلك وفى مقدمتهم الإمام الزركشى الذى كتب فى كتابه (البرهان فى علوم القرآن) ما نصه: «وما من برهان ودلالة وتقسيم، وتحديد شيء من كليات المعلومات العقلية والسمعية إلا وكتاب الله - تعالى - قد نطق به، لكن أورده - تعالى - على عادة العرب دون دقائق طرق أحكام المتكلمين لأمرين: **الأول**: بسبب ما قاله - سبحانه وتعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلاَّ بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ﴾ [إبراهيم: ٤]. **والثانى**: أن المائل إلى دقيق المحاجة هو العاجز عن إقامة الحجة بالجليل من الكلام، فإن استطاع أن يفهم بالأوضح الذى يفهمه الأكثرون لم يتخط إلى الأغمض الذى لا يعرفه إلا الأقلون، وكذلك أخرج تعالى مخاطباته فى محاجة خلقه من أجل صورة تشتمل على أدق دقيق لتفهم العامة من جليلها ما يقنعهم الحجة، وتفهم الخواص من أنبائها ما يوفى على ما أدركه الخطباء. .» ثم يضيف: **«ومن ثم كان على كل من أصاب حظًا فى العلم أوفر أن يكون نصيبه من علم القرآن أكثر؛ لأن عقله حينئذ يكون قد استنار بأضواء العلم، وهؤلاء الذين اهتم القرآن بمناداتهم كلما ذكر حجة على الربوبية والوحدانية، أو أضاف إليهم أولو الألباب والسامعون والمفكرون والمتذكرون تنبيهًا إلى أن بكل قوة من هذه القوى يمكن إدراك حقيقة منها»**.

من هنا كان واجب المتخصصين من المسلمين فى كل عصر وفى كل جيل أن ينفر منهم من يستطيع أن يجمع إلى حقل تخصصه إلمامًا بحد أدنى من علوم اللغة العربية وآدابها، ومن الحديث وعلومه، والفقه وأصوله، وعلم الكلام وقواعده، وإحاطة بأسباب النزول، وبالمأثور فى التفسير، وباجتهاد السابقين من أئمة المفسرين، ثم يعود هؤلاء إلى دراسة الإشارات الكونية الواردة فى كتاب الله - كلٌّ فيما يخصه - محاولين فهمها فى ضوء معطيات العلم وكشوفه، وقواعد المنطق وأصوله حتى يدركوا ما يستطيعون من فهم لكتاب الله فتتحقق نبوءة المصطفى ﷺ فى وصفه لهذا الكتاب العزيز بأنه: «لا تنقضى عجائبه»(١).

٣- أن القول بعدم جواز تأويل الثابت بالمتغير قول ساذج؛ لأن معناه الجمود على فهم واحد لكتاب الله، ينأى بالناس عن واقعهم فى كل عصر، حتى لا يستسيغوه فيملوه ويهملوه، وثبات القرآن الكريم.. وهو من السمات البارزة له لا يمنع من فهم الإشارات الكونية الواردة فيه على أساس من معطيات العلوم الكونية البحتة منها والتطبيقية، حتى ولو كان ذلك يتسع من عصر إلى آخر بطريقة مطردة، فالعلوم المكتسبة كلها لها طبيعة تراكمية، ولا يتوافر للإنسان منها فى عصر من العصور إلا أقدار تتفاوت بتفاوت الأزمنة، وتباين العصور، تقدمًا واضمحلالاً، وهذه الطبيعة التراكمية للمعرفة الإنسانية المكتسبة تجعل الأمم اللاحقة أكثر علمًا فى مجال الكونيات - بصفة عامة - من الأمم السابقة، إلا إذا تعرضت الحضارة الإنسانية بأكملها للانتكاس والتدهور.

من هنا كانت معطيات العلوم الكونية - بصفة خاصة، والمعارف المكتسبة كلها بصفة عامة - دائمة التغير والتطور، بينما كلمات وحروف القرآن الكريم ثابتة لا تتغير، وهذا وحده من أعظم شواهد الإعجاز فى كتاب الله.

وعلى الرغم من ثبات اللفظ القرآنى، وتطور الفهم البشرى لدلالاته- مع اتساع دائرة المعرفة الإنسانية جيلاً بعد جيل - فإن تلك الدلالات يتكامل بعضها مع بعض فى اتساق لا يعرف التضاد، ولا يتوافر ذلك لغير كلام الله. ويظل اللفظ القرآنى

---

(١) سبق تخريجه ص (١٤).

ثابتًا، وتتوسع دائرة فهم الناس له عصراً بعد عصر . . وفى ذلك شهادة للقرآن الكريم بأنه يغاير كلام البشر كافة، وأنه ـ بالقطع ـ بيان من الله ـ تعالى . . . ولذلك فإننا نجد القرآن الكريم يحض الناس حضًّا على تدبر آياته، والعكوف على فهم دلالاتها، ويتحدى أهل الكفر والشرك والإلحاد أن يجدوا فيه صورة واحدة من صور الاختلاف أو التناقض على توالى العصور عليه، وكثرة النظر فيه، وصدق الله العظيم إذ يقول: ﴿أَفَلا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلافًا كَثِيرًا﴾ [النساء: ٨٢]. وإذ يكرر التساؤل التقريعى فى سورة الرحمن إحدى وثلاثين مرة: ﴿فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ [الرحمن: ٦٦]، ويؤكد ضرورة تدبر القرآن، وأنه ـ تعالى ـ قد جعله فى متناول عقل الإنسان فيذكر ذلك أربع مرات فى سورة القمر، حيث يصدع التنزيل بقول الحق ـ تبارك وتعالى: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾ [القمر: ١٧].

والذكر هنا ـ كما يجمع المفسرون ـ يشمل التلاوة والتدبر معًا، ويشير إلى استمرار تلك العملية مع توالى العصور وتجدد الأزمان، ومن هنا يبقى النص القرآنى ثابتًا، ويتجدد فهم الناس له كلما اتسعت دائرة معارفهم ونمت حصيلتهم العلمية، وذلك بالقطع ـ فيما لم يرد فى شرحه شىء من المأثور الموثق. وليس فى ذلك مقابلة بين كلام الله وكلام الناس كما يدعى البعض، ولكنه المحاولة الجادة لفهم كلام الله، وهو ـ تعالى ـ الذى أنزله للبشر؛ لكى يفهموه، ويتعظوا بدروسه. وفهم آيات القرآن الكريم ـ فى الوقت نفسه بمعان تتسع مع اتساع دائرة المعرفة الإنسانية باستمرار، وفى تكامل لا يعرف التضاد ـ هو صورة من صور الإعجاز فى كتاب الله، لا ينكرها إلا جاحد.

أما القول بأن ما يسمى بحقائق الغلم ليس إلا نظريات وفروضًا، يبطل منها اليوم ما كان سائدًا بالأمس، وربما يبطل فى الغد ما هو سائد اليوم فهو أيضًا قول ساذج؛ لأن هناك فروقًا واضحة بين الفروض والنظريات من جهة، والقواعد والقوانين من جهة أخرى، وهى مراحل متتابعة فى منهج العلوم التجريبية الذى يبدأ بالفروض والحقائق ثم النظريات، وينتهى بالقواعد والقوانين والحقائق. والفروض هى

تفسيرات أولية للظواهر الكونية، والنظريات هى صياغة عامة لتفسير كيفية حدوث تلك الظواهر ومسبباتها، أما الحقائق الكونية فهى ما يثبت ثبوتًا قاطعًا فى علم الإنسان بالأدلة المنطقية المقبولة، وهى جزء من الحكمة التى نحن أولى الناس بها كما علمنا المصطفى ﷺ. أما القواعد والقوانين العلمية فهى تعبيرات بشرية عن السنن الإلهية فى الكون، تصف علاقات محددة تربط بين عناصر الظاهرة الواحدة، أو بين عدد من الظواهر الكونية المختلفة، وهى كذلك جزء من الحكمة التى هى ضالة المؤمن، كما أخبر الصادق المصدوق ـ عليه أفضل الصلاة وأزكى التسليم[1].

٤ ـ هذا وقد حرص كثير من علماء المسلمين، على ألا يتم تأويل الإشارات العلمية الواردة فى القرآن الكريم أو فى أقوال خاتم الأنبياء والمرسلين ﷺ إلا فى ضوء الحقائق العلمية المؤكدة والقوانين والقواعد الثابتة، أما الفروض والنظريات فلا يجوز تخديمهما فى فهم ذلك أبدًا، إلا فى حالة الآيات القرآنية الكريمة، والأحاديث النبوية الشريفة المتعلقة بالقضايا التى لا تخضع خضوعًا مباشرًا لحس الإنسان وإدراكه من مثل قضايا الخلق بأبعادها الثلاثة، وقضايا الإفناء والبعث. وحتى هذا الموقف نعتبره تحفظًا مبالغًا فيه، فكما يختلف دارسو القرآن الكريم فى فهم بعض الدلالات اللفظية، والصور البيانية، وغيرها من القضايا اللغوية، ولا يجدون حرجًا فى ذلك العمل الذى يقومون به فى غيبة نص ثابت مأثور، فإننا نرى أنه لا حرج على الإطلاق فى فهم الإشارات الكونية الواردة بالقرآن الكريم على ضوء المعارف العلمية المتاحة، حتى ولو لم تكن تلك المعارف قد ارتقت إلى مستوى الحقائق الثابتة؛ وذلك لأن التفسير يبقى جهدًا بشريًا خالصًا ـ بكل ما للبشر من صفات القصور، والنقص، وحدود القدرة ـ، ثم إن العلماء التجريبيين قد يجمعون على نظرية ما، لها من الشواهد ما يؤيدها، وإن لم ترق بعد إلى مرتبة الحقيقة أو القاعدة أو القانون، ولا يكون أمام العلماء من مخرج للوصول بها إلى ذلك المستوى أبدًا، فمن أمور الكون العديدة ما لا سبيل للعلماء التجريبيين من الوصول فيها إلى حقيقة أبدًا، ولكن قد يتجمع لديهم من الشواهد ما يمكن أن يعين

---

(١) العجلونى فى «كشف الخفاء» (١/ ٤٣٥).

على بلورة نظرية من النظريات، ويبقى العلم التجريبى مسلمًا بأنه لا يستطيع أن يتعدى تلك المرحلة فى ذلك المجال بعينه أبدًا، والأمثلة على ذلك كثيرة منها النظريات المفسرة لأصل الكون وأصل الحياة وأصل الإنسان، وقد مرت بمراحل متعددة من الفروض العلمية حتى وصلت اليوم إلى عدد من النظريات المقبولة، ولا يتخيل العلماء أنهم سيصلون فى يوم من الأيام إلى أكثر من تفضيل لنظرية على أخرى، أو تطوير لنظرية عن أخرى، أو وضع لنظرية جديدة، دون الادّعاء بالوصول إلى حقيقة راسخة أو قانون قطعى، أو قاعدة ثابتة لذلك أبدًا. فتكثر النظريات المفسرة لظواهر محددة، وتختلف باختلاف خلفية واضعيها، ويبقى للمسلم نور من الله الخالق فى آية قرآنية كريمة، أو حديث نبوى صحيح يمكن أن يعينه على الارتقاء بإحدى هذه النظريات إلى مقام الحقيقة لمجرد وجود إشارة لها فى كتاب الله أو فى حديث رسول الله ﷺ، وإن لم يستطع العلم المكتسب أن يقوم بذلك. فهذه مجالات إذا دخلها الإنسان بغير هداية ربانية فإنه يضل فيها ضلالاً بعيدًا، وصدق الله العظيم إذ يقول: ﴿مَّا أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَلا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَضُدًا﴾ [الكهف: ٥١].

وذلك لأنه على الرغم من أن العلماء التجريبيين يستقرئون حقائق الكون بالمشاهدة والاستنتاج، أو بالتجربة والملاحظة والاستنتاج، فى عمليات قابلة للتكرار والإعادة، إلا أن من أمور الكون ما لا يمكن إخضاعه لذلك من مثل قضايا الخلق بأبعاده الثلاثة: خلق الكون، وخلق الحياة، وخلق الإنسان. وهى قضايا لا يمكن للإنسان أن يصل فيها إلى تصور صحيح أبدًا بغير هداية ربانية. ولولا الثبات فى سنن الله التى تحكم الكون وما فيه ما تمكن الإنسان من اكتشاف تلك السنن أبدًا. . . ولا يظن عاقل أن البشر مطالبون بما هو فوق طاقاتهم، خاصة فى فهم كتاب الله الذى أنزل لهم، ويسر لتذكرهم؛ لقول الحق - تبارك وتعالى: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾ [القمر: ١٧]. ففى الوقت الذى يقرر فيه القرآن الكريم أن الله لم يُشهد أيّا من الجن والإنس خلق السماوات والأرض ولا خلق أنفسهم، نجده فى آيات أخَر يأمرهم بالنظر فى كيفية بداية الخلق، وهى من أصعب

قضايا العلوم الكونية قاطبة؛ إذ يقول عز من قائل: ﴿أَوَ لَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِئُ اللَّهُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴿١٩﴾ قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [العنكبوت: ١٩ ـ ٢٠].

وفى ذلك ما يشير إلى أن بالأرض سجلاً حافلاً بالحقائق التى يمكن أن يستدل منها على كيفية بدء الخلق الأول، وعلى إمكانية النشأة الآخرة، والأمر فى الآية من الله ـ تعالى ـ إلى رسوله الكريم ليدعو الناس كافة إلى السير فى الأرض، واستخلاص العبرة من فهم كيفية الخلق الأول، وهى قضية تقع من العلوم الكونية فى الصميم، إن لم تكن تشكل أصعب قضية علمية عالجها الإنسان.

وهذه القضايا: قضايا الخلق وإفنائه وإعادة خلقه، لها فى كتاب الله وفى سنة رسوله ﷺ من الإشارات اللطيفة ما يُمكِّن الإنسان المسلم من تفضيل نظرية من النظريات أو فرض من الفروض والارتقاء بهما إلى مقام الحقيقة لمجرد ورود ذكر لها أو له فى كتاب الله أو فى سنة رسوله ﷺ، ونكون بذلك قد انتصرنا بالقرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة للعلم وليس العكس.

وعلى ذلك فإنى أرى جواز فهم الإشارات العلمية الواردة بالقرآن الكريم على أساس من الحقائق العلمية الثابتة أولاً، فإن لم تتوافر فبالنظرية السائدة، فإن لم تتوافر فبالفرض العلمى المنطقى المقبول، حتى لو أدى التطور العلمى فى المستقبل إلى تغيير تلك النظرية، أو ذلك الفرض أو تطويرهما أو تعديلهما؛ وذلك لأن التفسير ـ كما سبق وأن أشرت ـ يبقى اجتهاداً بشريًا خالصًا من أجل حسن فهم دلالة الآية القرآنية إن أصاب فيه المرء فله أجران وإن أخطأ فله أجر واحد، ويبقى هذا الاجتهاد قابلاً للزيادة والنقصان، وللنقد والتعديل والتبديل.

إن فى كون القرآن الكريم بيانًا من الله ـ تعالى ـ إلى الناس كافة، يفرض على المتخصصين من أبناء المسلمين أن يفهموه ـ كلٌّ فى حقل تخصصه ـ على ضوء ما تجمع له من معارف بتوظيف مناهج الاستقراء الدقيقة؛ فالقرآن نزل للناس ليفهموه وليتدبروا آياته. ثم إن فى تفسير آيات الكونيات على ضوء من معطيات العلوم

التجريبية لا يشكل احتجاجًا على القرآن بالمعارف المكتسبة، ولا انتصارًا له بها فالقرآن - بالقطع - فوق ذلك كله، ولأن التفسير على أساس من المعطيات العلمية الحديثة يبقى محاولة بشرية للفهم فى إطار لم يكن متوفرًا للناس من قبل، ولا يمكن أن تكون محاولات البشر لفهم القرآن الكريم حجة على كتاب الله، سواء أصابت أم أخطأت تلك المحاولات، وإلا لما حفل القرآن الكريم بهذا الحشد الهائل من الآيات التى تحض على استخدام كل الحواس البشرية للنظر فى مختلف جنبات الكون بمنهج علمى استقرائى دقيق. وذلك لأن الله - تعالى - قد جعل السنن الكونية على قدر من الثبات والاطراد بحيث يمكنان حواس الإنسان المتأمل لها، والمتفكر فيها، والمتدبر لتفاصيل جريانها من إدراك أسرارها (على الرغم من حدود قدرات تلك الحواس) ويعينان عقله على فهمها (على الرغم من حدود قدرات ذلك العقل)، وربما كان هذا هو المقصود من آيات التسخير التى يزخر بها القرآن الكريم، ويمن علينا ربنا - تبارك وتعالى، وهو صاحب الفضل والمنة - بهذا التسخير الذى هو من أعظم نعمه علينا - نحن العباد.

ومن أروع ما يدركه الإنسان المتأمل فى الكون كثرة الأدلة المادية الملموسة على كل حدث وقع فى الكون صغر أم كبر، أدلة مدونة فى صفحة السماء، وفى صخور الأرض بصورة يمكن لحواس الإنسان ولعقله إدراكها لو اتبع المنهج العلمى الاستقرائى الصحيح، فما من انفجار حدث فى الكون إلا وهو مدون، وما من نجم توهج أو خمد إلا وله أثر، وما من هزة أرضية أو ثورة بركانية أو حركة بانية للجبال إلا وهى مسجلة فى صخور القشرة الأرضية، وما من تغير فى تركيب الغلاف الغازى أو المائى للأرض إلا وهو مدون فى صخورها، وما من تقدم للبحار أو انحسار لها، ولا تغير فى المناخ إلا وهو مدون كذلك فى صخور الأرض، وما من هبوط نيزك من النيازك على الأرض إلا وهو مسجل فى صخورها. ومن هنا فإن الدعوة القرآنية للتأمل فى الكون واستخلاص سنن الله فيه، وتوظيف تلك السنن فى عمارة الأرض والقيام بواجب الاستخلاف فيها هى دعوة للناس فى كل زمان ومكان، وهى دعوة لا تتوقف ولا تتخلف ولا تتعطل أبدًا، انطلاقًا من الحقيقة الواقعة أنه مهما اتسعت دائرة المعرفة الإنسانية فإن القرآن الكريم يبقى - دومًا -

مهيمنًا عليها، ومحيطًا بها؛ لأنه كلام الله الخالق الذى أبدع هذا الكون بعلمه وقدرته وحكمته، والذى هو أدرى بصنعته من كل من هم سواه.

وعلى ذلك فإن مقابلة كلام الله بمحاولة البشر لتفسيره، وإثبات جوانب الإعجاز فيه، لا تنتقص من جلال الربوبية الذى يتلألأ بين كلمات هذا البيان الربانى الخالص، وإنما تزيد المؤمنين ثباتًا على إيمانهم، وتقيم الحجة على الجاحدين من الكفار والمشركين، وحتى لو أخطأ المفسر فى فهم دلالة آية من آيات القرآن الكريم فإن هذا الخطأ يعود على المفسر نفسه ولا ينسحب على جلال كلام الله أبدًا، والذين فسروا باللغة أصابوا وأخطأوا، وكذلك الذين فسروا بالتاريخ، فليحاول العلماء التجريبيون تفسير الآيات الكونية بما تجمع لديهم من معارف؛ لأن تلك الآيات لا يمكن فهم دلالاتها فهمًا كاملاً، ولا استقراء جوانب الإعجاز فيها فى حدود اللغة وحدها.

إن الاحتجاج بأن العلوم التجريبية - فى ظل الحضارة المادية المعاصرة - تنطلق فى معظمها من منطلقات مادية بحتة، تنكر أو تتجاهل الغيب، ولا تؤمن بالله، وأن للكثيرين من المشتغلين بالعلوم الكونية مواقف عدائية واضحة من قضية الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، فمردهما بعيد عن طبيعة العلوم الكونية، وإنما يرجع ذلك إلى العقائد الفاسدة التى أفرزتها الحضارة المادية المعاصرة، والتى تحاول فرضها على كل استنتاج علمى، وعلى كل رؤية شاملة للكون والحياة، فى وقت حقق فيه الإنسان قفزات هائلة فى مجال العلوم الكونية البحتة منها والتطبيقية، بينما تخلف المسلمون فى كل أمر من أمور الحياة -بصفة عامة- وفى مجال العلوم والتقنية -بصفة خاصة- مما أدى إلى انتقال القيادة الفكرية فى هذه المجالات على وجه الخصوص إلى أمم سبق للعلماء فيها أن عانوا معاناة شديدة من تسلط الكنيسة عليهم، واضطهادها لهم، ورفضها للمنهج العلمى ولكل معطياته، ووقوفها حجر عثرة فى وجه أى تقدم علمى، كما حدث فى أوروبا فى أوائل عصر النهضة. وظل الحال كذلك حتى انتصرت حقائق العلم على خرافات الكنيسة فانطلق العلماء الغربيون من منطلق العداوة للكنيسة أولاً ثم لقضية الإيمان بالتبعية،

وداروا بالعلوم الكونية ومعطياتها فى إطارها المادى فقط، وبرعوا فى ذلك براعة ملحوظة، ولكنهم ضلوا السبيل وتنكبوه حينما حبسوا أنفسهم فى إطار المادة وحدها، ولم يتمكنوا من إدراك ما فوقها، وحرموا أنفسهم من مجرد التفكير فيه، فأصبحت الغالبية العظمى من العلوم تكتب من مفهوم مادى صرف، وانتقلت عدوى ذلك إلى عالمنا المسلم أثناء مرحلة اللهث وراء اللحاق بالركب التى نعيشها منذ بدايات القرن العشرين، وما صاحب ذلك من مركبات الشعور بالنقص، أو نتيجة لدس الأعداء، وانبهار البلهاء بما حققته الحضارة المادية المعاصرة من انتصارات فى مجال العلوم البحتة والتطبيقية، وما وصلت إليه من أسباب القوة المادية والغلبة العسكرية، وما حملته معها حركة الترجمة من غث وسمين، فأصبحت العلوم تكتب اليوم فى عالمنا المعاصر من نفس المنطلق؛ لأنها عادة ما تدرس وتكتب وتنشر بلغات أجنبية على نفس النمط الذى أرست قواعده الحضارة المادية المعاصرة. وحتى ما ينشر منها باللغة العربية، وبغيرها من اللغات المحلية فى مختلف دول العالم الإسلامى المعاصر، لا يكاد يخرج فى مجموعه عن كونه ترجمة مباشرة أو غير مباشرة للفكر الغريب الوافد، بكل ما فيه من تعارض واضح أحيانًا مع نصوص الدين، وهنا تقتضى الأمانة إثبات أن ذلك الموقف غريب على العلم وحقائقه، ومن هنا أيضًا كان من واجب المسلمين إعادة التأصيل الإسلامى للمعارف المكتسبة كلها، أى إعادة كتابة العلوم وغيرها من المعارف المكتسبة من منطلق إسلامى صحيح، خاصة وأن المعطيات الكلية للعلوم - بعد وصولها إلى قدر من التكامل فى هذا العصر - أصبحت من أقوى الأدلة على وجود الله، وعلى تفرده بالألوهية والربوبية والوحدانية فوق جميع خلقه، ومن أنصع الشواهد على حقيقة الخلق، وحتمية البعث، وضرورة الحساب. وأن العلوم الكونية كانت ولا تزال النافذة الرئيسية التى تتصل منها الحضارة المعاصرة بالفطرة الربانية، وأن المنهج العلمى ونجاحه فى الكشف عن عدد من حقائق هذا الكون متوقف على اتساق تلك الفطرة واتصاف سننها بالاطراد والثبات.

إن القول بأن المعطيات الكلية للعلوم التجريبية - كما تصاغ فى الحضارة المادية المعاصرة - قد تتباين مع الأصول الإسلامية الثابتة، قول على إطلاقه غير صحيح؛

لأنه إذا جاز ذلك فى بعض الاستنتاجات الجزئية الخاطئة، أو فى بعض الأوقات كما كان الحال فى مطلع القرن العشرين، والمعرفة بالكون جزئية متناثرة، ساذجة بسيطة، أو فى الجزء المتوسط منه عندما أدت المبالغة فى التخصص إلى حصر العلماء فى دوائر ضيقة للغاية حجبت عنهم الرؤية الكلية لمعطيات العلوم، فإنه لا يجوز اليوم وقد بلغت المعارف بأشياء هذا الكون حداً لم تبلغه البشرية من قبل، وأصبحت الاستنتاجات الكلية لتلك المعارف تؤكد ضرورة الإيمان بالخالق البارئ المصور الذى ليس كمثله شىء، وضرورة التسليم بالغيب وبالوحى وبالبعث وبالحساب، فمن المعطيات الكلية للعلوم الكونية المعاصرة ما يمكن إيجازه فيما يلى :

● إن هذا الكون الذى نحيا فيه متناه فى أبعاده، مذهل فى دقة بنائه، وإحكام ترابطه وانتظام حركاته.

● إن هذا الكون مبنى على نفس النظام من أدق دقائقه إلى أكبر وحداته.

● إن هذا الكون دائم الاتساع إلى نهاية لا يستطيع العلم المكتسب إدراكها، وإن أمكنه قياس معدلات هذا التوسع.

● إن هذا الكون ـ على قدمه ـ مستحدث مخلوق، كانت له فى الماضى السحيق بداية يحاول العلم التجريبى قياسها، ووصل فيها إلى دلالات تكاد تكون ثابتة إذا استبعدنا الأخطاء التجريبية.

● إن هذا الكون عارض، فلا بد من أن ستكون له فى يوم من الأيام نهاية تشير إليها كل الظواهر الكونية من حولنا، وإن عجزنا عن تحديد وقتها الذى لا يعلمه إلا الله.

● إن هذا الكون المادى لا يمكن أن يكون قد أوجد نفسه بنفسه، ولا يمكن لأى من مكوناته المادية أن تكون قد أوجدته.

● إن هذا الكون المتناهى الأبعاد، الدائم الاتساع، المحكم البناء، الدقيق الحركة والنظام، والذى يدور كل ما فيه فى مدارات محددة ويجرى بسرعات مذهلة متفاوتة وثابتة، لا يمكن أن يكون قد وجد بمحض المصادفة.

• هذه المعطيات السابقة تفضى إلى حقيقة منطقية واحدة مؤداها أنه إذا كان هذا الكون الحادث لا يمكن أن يكون قد أوجد نفسه بنفسه أو أن يكون قد وجد بمحض المصادفة، فلا بد له من موجد عظيم له من العلم والقدرة والحكمة وغير ذلك من صفات الكمال والتنزيه ما لا يتوفر لشيء من خلقه، بل لا مهرب من الاعتراف بأن يكون لهذا الخالق العظيم من الصفات ما يغاير صفات المخلوقات جميعًا فلا تحده حدود المكان والزمان، ولا قوالب المادة والطاقة ولابد من أن تكون مرجعية الكون كله إليه، وبالتالى فلا بد من أن يكون خارج حدود الكون، وأن يرجع أمر الكون كله إليه، ﴿لاَ تُدْرِكُهُ الأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ [الأنعام: ١٠٣] ولا ينسحب عليه ما يحكم خلقه من سنن وقوانين؛ لأنه - سبحانه وتعالى ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ [الشورى: ١١].

• هذا الخالق العظيم الذى أوجد الكون بما فيه ومن فيه هو وحده الذى يملك القدرة على إزالته وإفنائه ثم إعادة خلقه وقتما شاء وكيفما شاء، وفى ذلك يقول سبحانه وتعالى: ﴿يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُ وَعْدًا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٤]، ويقول عز من قائل: ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ الأَرْضُ غَيْرَ الأَرْضِ وَالسَّمَوَاتُ وَبَرَزُوا لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾ [إبراهيم: ٤٨] وقال جل شأنه: ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَن نَّقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾ [النحل: ٤٠].

• إن الوحدة فى هذا الكون تشير إلى وحدانية هذا الخالق العظيم: وحدة بناء كل من الذرة، والخلية الحية، والمجموعة الشمسية، والمجرة، وغيرها من تجمعات أجرام السماء، ووحدة تأصل العناصر كلها وردها إلى أبسطها وهو غاز الأيدروچين، ووحدة تواصل كل صور الطاقة، وتواصل المادة والطاقة، وتواصل كلّ من المكان والزمان، هذا التواصل وتلك الوحدة التى يميزها التنوع فى أزواج، وتلك الزوجية التى تنتظم كل صور المخلوقات من الجمادات والأحياء (من اللبنات الأولية للمادة إلى الإنسان) تشهد بتفرد الخالق البارئ المصور بالوحدانية

المطلقة فوق جميع خلقه، واستعلاء هذا الخالق الواحد الأحد الفرد الصمد فوق خلقه بمقام الألوهية الذى لا يشاركه فيه أحد، ولا ينازعه على سلطانه منازع ولا يشبهه من خلقه شيء.

● إن العلوم التجريبية فى تعاملها مع المدرك المحسوس فقط، قد استطاعت أن تتوصل إلى أن بالكون غيبًا قد لا يستطيع الإنسان أن يشق حجبه، ولولا ذلك الغيب ما استمرت تلك العلوم فى التطور والنماء؛ لأن أكبر الاكتشافات العلمية قد تم نتيجة للبحث الدءوب عن هذا الغيب.

● وتؤكد العلوم التجريبية أن بالأحياء سرّا لا نعرف كنهه؛ لأننا نعلم مكونات الخلية الحية، والتركيب المادى لجسد الإنسان، ومع ذلك لم يستطع هذا العلم أن يصنع لنا خلية حية واحدة، أو أن يوجد لنا إنسانًا عن غير الطريق الفطرى لإيجاده. وحتى الاستنساخ الذى هو عبث بالخلق لا يخرج عن ذلك فى شيء.

● إن النظر فى أىّ من زوايا الكون ليؤكد حاجته - بمن فيه وما فيه - إلى رعاية خالقه العظيم فى كل لحظة من لحظات وجوده.

● إن العلوم الكونية إذ تقدر أن الكون والإنسان فى شكليهما الحاليين ليسا أبديين، فإنها - وعلى غير قصد منها - لتؤكد حقيقة الآخرة، بل حتميتها، والموت يتراءى فى مختلف جنبات الكون فى كل لحظة من لحظات وجوده، شاملاً الإنسان والحيوان والنبات والجماد وأجرام السماء على تباين هيئاتها، وتكفى فى ذلك الإشارة إلى ما أثبتته الدراسة من أن الشمس تفقد من كتلتها بالإشعاع على هيئة طاقة ما يقدر بحوالى ٤,٦ مليون طن فى كل ثانية، وأنها إذ تستمر فى ذلك فلا بد من أن يأتى الوقت الذى تخبو فيه جذوتها، وينطفئ أوارها، وتنتهى الحياة على الأرض قبل ذلك؛ لاعتماد الأرض فى ممارسة أنشطتها الحيوية على القدر المقنن الذى يصلها من أشعة الشمس، وأن الطاقة تنتقل من الأجسام الحارة إلى الأجسام الأقل حرارة بطريقة مستمرة فى محاولة لتساوى درجات حرارة الأجرام المختلفة فى الكون، ولا بد أن تنتهى بذلك أو قبله كل صور الحياة المعروفة لنا. وليس معنى

ذلك أنه يمكن معرفة متى تكون نهاية هذا الوجود؛ لأن الآخرة قرار إلهى لا يرتبط بسنن الدنيا، وإن أبقى الله - تعالى - لنا فى الدنيا من الظواهر والسنن ما يؤكد إمكانية وقوع الآخرة، بل حتميتها انصياعًا للأمر الإلهى بـ ﴿كُن فَيَكُونُ﴾ ﴿بَدِيعُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَإِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾ [البقرة: ١١٧].

والقرآن الكريم يؤكد لنا فيه ربنا - تبارك وتعالى - فجائية وقوع الآخرة بقوله العزيز مخاطبًا خاتم أنبيائه ورسله سيدنا محمدًا ﷺ فيقول: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي لا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَا إِلاَّ هُوَ ثَقُلَتْ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ لا تَأْتِيكُمْ إِلاَّ بَغْتَةً يَسْأَلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ اللَّهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ١٨٧].

وتكفى فى ذلك الإشارة إلى أن الإنسان الذى يحوى جسده فى المتوسط ألف مليون مليون خلية يفقد منها فى كل ثانية ما يقدر بحوالى ١٢٥ مليون خلية، تموت ويتخلق غيرها بحيث تتبدل جميع خلايا جسد الفرد من بنى البشر مرة كل عشر سنوات تقريبًا، فيما عدا الخلايا العصبية التى إذا ماتت لا تتجدد.

وتكفى فى ذلك أيضًا الإشارة إلى أن انتقال الإليكترون من مدار إلى آخر حول نواة الذرة يتم بسرعة مذهلة، دفعت بعدد من العلماء المعاصرين إلى الاعتقاد بأنه فناء فى مدار وخلق جديد فى مدار آخر.

كما تكفى الإشارة إلى ظاهرة اتساع الكون عن طريق تباعد المجرات عن بعضها البعض بسرعات مذهلة تقترب من سرعة الضوء (المقدرة بحوالى ثلاثمائة ألف كيلو متر فى الثانية) وتخلق المادة فى المسافات الجديدة الناتجة عن هذا التباعد المستمر إلى نهاية لا يعلمها إلا الله، وبطريقة لا يعلمها إلا الله. وتباطؤ هذا التباعد مع الزمن يشير إلى حتمية تغلب الجاذبية على عملية الدفع إلى الخارج، مما يؤدى إلى إعادة جمع مادة الكون ومختلف صور الطاقة فيه وكل المكان والزمان فى جرم واحد ذى كثافة بالغة يشبه الجرم الأول الذى بدأ منه خلق الكون، وهذا سوف يؤدى إلى انفجاره على هيئة شبيهة بالانفجار الأول الذى تم به خلق الكون، فيتحول هذا

الجرم إلى غلالة من دخان كما تحول الجرم الأول، وتتخلق من هذا الدخان أرض غير الأرض، وسماوات غير السماوات كما وعد ربنا - تبارك وتعالى - بقوله: ﴿يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ وَعْدًا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٥]، وقوله سبحانه: ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ الأَرْضُ غَيْرَ الأَرْضِ وَالسَّمَوَاتُ وَبَرَزُوا لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾، [إبراهيم: ٤٨].

وتكفى فى ذلك أيضًا الإشارة إلى فناء مختلف صور المادة والطاقة فى داخل الثقوب السود إلى نهاية لا يعلمها إلا الله - تعالى. ويكفى أن نشير إلى حقيقة أن الذرات فى جميع الأحماض الأمينية والجزيئات البروتينية تترتب ترتيبًا يساريًا فى أجساد كافة الكائنات الحية على اختلاف مراتبها، فإذا ما مات الكائن الحى أعادت تلك الذرات ترتيب نفسها ترتيبًا يمينيًا بمعدلات ثابتة محددة يمكن بواسطتها تحديد لحظة وفاة الكائن الحى إذا بقيت من جسده بقية بعد مماته، ويتعجب العلماء من القدرة التى مكنت الذرات من تلك الحركات المنضبطة بعد وفاة صاحبها وتحلل جسده!!

فهل يمكن لعاقل بعد ذلك أن يتصور أن العلوم الكونية ومعطياتها فى أزهى عصور ازدهارها - تتصادم مع قضية الإيمان بالله؟ وهذه هى معطياتها الكلية، وهى فى جملتها تكاد تتطابق مع تعاليم السماء، وفى ذلك كتب المفكر الإسلامى الكبير الأستاذ محمد فريد وجدى - يرحمه الله - فى خاتمة كتابه «المستقبل للإسلام» ما نصه:

«إن كل خطوة يخطوها البشر فى سبيل الرقى العلمي، هى تقرب إلى ديننا الفطرى، حتى ينتهى الأمر إلى الإقرار الإجماعى بأنه الدين الحق».

ثم يضيف.. «نعم إن العالم بفضل تحرره من الوراثات والتقاليد وإمعانه فى النقد والتمحيص، يتمشى على غير قصد منه نحو الإسلام، بخطوات متزنة ثابتة، لا توجد قوة فى الأرض ترده عنه إلا إذا انحل عصام المدنية، وارتكست الجماعات الإنسانية عن وجهتها العلمية».

وقد بدأت بوادر هذا التحول الفكرى تظهر جلية اليوم فى مختلف جنبات الأرض، بإقبال أعداد كبيرة من العلماء والمتخصصين وكبار المثقفين والمفكرين على الإسلام، إقبالاً لم تعرف له الإنسانية مثيلاً من قبل، وأعداد هؤلاء العلماء الذين

توصلوا إلى الإيمان بالله عن طريق النظر المباشر فى الكون، واستدلوا على صدق خاتم أنبيائه ورسله ﷺ بالوقوف على عدد من الإشارات العلمية البارقة الصادقة فى كتاب الله، أو فى سنة رسوله ﷺ هم فى تزايد مستمر، وهذا واحد منهم هو «موريس بوكاى» الطبيب والباحث الفرنسى يسجل فى كتابه «الإنجيل والقرآن والعلم» ما نصه:

«لقد أثارت هذه الجوانب العلمية التى يختص بها القرآن دهشتى العميقة فى البداية، فلم أكن أعتقد قط بإمكان اكتشاف عدد كبير - إلى هذا الحد - من الدعاوى الخاصة بموضوعات شديدة التنوع ومطابقة تمامًا للمعارف العلمية الحديثة، وذلك فى نص دوّن منذ أكثر من ثلاثة عشر قرنًا».

٨ - إن فهم الإشارات الكونية فى كتاب الله، على ضوء ما تجمع للبشرية اليوم من معارف، وتقديمها للعالم كواحد من الأدلة العديدة على أن القرآن الكريم هو كلام الله الذى أنزله بعلمه على خاتم أنبيائه ورسله ﷺ، والذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، والذى حفظ بحفظ الله، بنفس اللغة التى أوحى بها (اللغة العربية)، بدقائق حروفه وكلماته وآياته وسوره، يعتبر فتحًا جديدًا للإسلام، وإنقاذًا للبشرية من الهاوية التى تتردى فيها اليوم بسبب تقدمها العلمى والتقنى المذهل، وتضاؤل روح الإيمان بالله، وانعدام الخشية من عذابه فى نفوس العدد الأكبر من الناس، خاصة فى أكثر المجتمعات البشرية المعاصرة أخذًا بأسباب التقدم العلمى والتقنى، فأغلب المجتمعات البشرية فى الدول غير المسلمة تعانى اليوم من انفراط عقد الأسرة، والتقنين للممارسات الجنسية بدون أدنى رباط، فكثر حمل المراهقات، وأبناء الزنا، والأسر ذات العائل الواحد، وتفشت الأمراض والأوباء والعلل مما لم يكن معروفًا من قبل، وقنّنت الحكومات فى الكثير من دول العالم اليوم التشريعات للعلاقات الشاذة، وصرحت بتبنى الأطفال وتنشئتهم فى وسط الشواذ - وهى عملية مدمرة للفطرة الإنسانية - فكثرت الأزمات النفسية وأمراضها، وتضاعفت معدلات كلٍّ من الإدمان والجريمة والانتحار، وملئت أكثر المجتمعات البشرية ثراء وتطورًا ماديًّا بأخطر مشاكل المجتمعات الإنسانية على الإطلاق...!!!

ومن هؤلاء الذين لا يعرفون لهم أبا، والذين خرجوا إلى الحياة بطرق غير مشروعة، ونشأوا في بيئات فاسدة، وبين سلوكيات منحطة وضيعة مَنْ يمكن أن يصل إلى مقام السلطة في دول تملك من تقنيات ووسائل الغلبة المادية، ومن مختلف أسلحة الدمار الشامل ما يمكن أن يعينه على البطش بالخلق، وإفشاء الظلم، وتدمير الحياة على الأرض، وإفساد بيئاتها والقضاء على مختلف صور الحياة فيها. . . !!! ولا يجد من دين أو خلق أو منطق أى رادع يمكن أن يرده عن ذلك تمامًا كما يفعل كلٌّ من المجرم «شارون» و«چورچ بوش الابن» وذنبه الأعوج «تونى بلير» وعصاباتهم اللعينة التى ملأت الأرض ظلمًا، وجوراً، وفساداً، ودماراً، وإهداراً لكرامة الإنسان، وتدميراً للقيم والأخلاق والمبادئ، وللقوانين والأعراف ولحقوق الإنسان، وللشرعية والدولية فى عالم اليوم. . . !!!

وأغلب وسائل الإعلام قد وقعت اليوم فى أيدى غلاة اليهود المتعصبين لأسطورة شعب الله المختار، فى مؤامرة خسيسة على الإنسانية ـ وهم بهذا أشد الناس عداوة للذين آمنوا بصفة خاصة وللإنسان غير اليهودى بصفة عامة ـ فوظفوا كافة تلك الوسائل الإعلامية فى تدمير البقية الباقية من عقائد وأخلاقيات وسلوكيات المجتمعات الإنسانية، وفى تشويه صورة الإسلام فى أذهان الناس؛ وذلك لأنه مما يسوؤهم أن يروا الإسلام ينتشر فى مجتمعاتهم فى الوقت الذى يتصورون فيه أنهم قد أحاطوا بالإسلام والمسلمين إحاطة كاملة. **وعلى الرغم من كل ذلك فإنه يقبل على الإسلام اليوم فى الغرب والشرق قمم الفكر والعلم والرأى؛ لأنهم يرون فيه المخرج الوحيد من الوحل النتن الذى غاصت فيه مجتمعاتهم.**

ووسيلتنا فى تحسين صورة الإسلام فى العالم هى حسن الدعوة إليه بالكلمة الطيبة، والحجة الواضحة، والمنطق السوى. وخير ما نقدمه فى ذلك المضمار مما يتناسب مع طبيعة العصر ولغته هو الإعجاز العلمى للقرآن الكريم وللسنة النبوية المطهرة؛ لأننا نعيش فى زمن أدار فيه غالبية الناس ظهورهم للدين، ولم تعد قضايا الغيب المطلق من حساب فى القبر، وبعث بعد الموت، وعرض أكبر أمام الله الخالق، وخلود فى حياة قادمة: إما فى الجنة أبداً، أو فى النار أبداً، وغيرها من قضايا الدين لم تعد تحرك فيهم ساكنًا، ولكنهم فى نفس الوقت قد فتنوا بالعلم ومعطياته فتنة كبيرة،

فإذا أشرنا إلى سبق للقرآن الكريم بالإشارة إلى عدد من حقائق الكون قبل أن يصل الإنسان إلى شيء منها بالمئات العديدة من السنين، وهو الكتاب الذى أنزل على نبى أمي ﷺ، فى أمة كان غالبيتها الساحقة من الأميين، فإن ذلك سوف يحرك عقولهم وقلوبهم، وسوف يحضهم على قراءة كتاب الله الذى ما اطلع عليه عاقل (حتى فى ترجمة لمعانيه) إلا وشهد له أنه لا يمكن أن يكون كلام أحد غير الله الخالق - سبحانه وتعالى - وفى ذلك تقليل من حجم الكراهية الشديدة التى غرستها وسائل الإعلام الصهيونية فى قلوب الملايين من الأفراد للإسلام والمسلمين، ودعوة مستنيرة إلى دين الله - وماأحوجنا للدعوة لهذا الدين - الخاتم فى زمن التحدى بالعولمة الذى نعيشه، والذى يتهدد كافة شعوب الأرض بالذوبان فى بوتقة الحضارة المادية الجارفة...!! وفى زمن الاستعلاء الأنجلو أمريكى الإسرائيلى اللعين الذى يتهدد منطقتنا بأكملها بالدمار فى ظل تفكك القيادات العربية والمسلمة وتشرذمهم، وتخاذلهم، وانصياعهم للأوامر المعادية لشعوبهم ولدينهم ولأخلاقهم وقيمهم. وفقدهم للثقة بالله، وخوفهم المزعوم من الشبح الأمريكى اللعين، الذى لا يصمد أبداً أمام قدرة رب العالمين، وإسلامنا العظيم يعلمنا أنه من معانى «لا إله إلا الله» أنه لا سلطان فى هذا الوجود لغير الله، وأننا لو رجعنا إلى ربنا بصدق وتمسكنا بإسلامنا فى تجرد وإخلاص لنصرنا الله - تعالى - كما نصر أسلافنا العظام من قبل.

ومن أهم وسائلنا فى ذلك حسن الدعوة إلى دين الله باللغة التى يفهمها أهل عصرنا وهى لغة العلم. ولا يمكن أن يصدنا عن ذلك دعوى أن عدداً من المفسرين السابقين الذين تعرضوا لتفسير بعض الآيات الكونية فى كتاب الله قد تكلفوا فى تحميل تلك الآيات من المعانى ما لا تحتمله؛ وذلك بسبب نقص فى وفرة المعلومات العلمية أو جهل بها، وكما سبق وأن أوضحنا فإن التفسير لآيات القرآن الكريم هو محاولة بشرية لحسن فهم دلالة تلك الآيات إن أصاب فيها المرء فله أجران، وإن أخطأ فله أجر واحد، والمعول عليه فى ذلك هو النية، وأن الخطأ فى التفسير لا ينال من جلال القرآن الكريم، ولكنه ينعكس على المفسر، خاصة وأن الذين فسروا باللغة أصابوا وأخطأوا، والذين فسروا بالتاريخ أصابوا وأخطأوا - ولم ينل ذلك

من قدسية القرآن الكريم ومكانته فى قلوب وعقول المؤمنين شيئًا، أما اليوم وقد توفر للإنسان من المعرفة بحقائق الكون وسننه ما لم يتوفر لجيل من البشر من قبل، فإن توظيف ذلك الكم الهائل من المعلومات الصحيحة من أجل حسن فهم دلالة الآية القرآنية، وإثبات سبقها التاريخى لكافة البشر يعتبر ضرورة إسلامية لتثبيت إيمان المؤمنين، ولدعوة الضالين من الكفار والمشركين والذين سوف يسألنا ربنا - تبارك وتعالى - عن تبليغهم بهذا الدين، ودعوتهم إليه بالحكمة والموعظة الحسنة.

والأخطاء التى وقع فيها عدد من المفسرين الذين تعرضوا للآيات الكونية فى كتاب الله، فتكلفوا فى تحميل الآيات من المعانى ما لا تحتمله، فى تعسف واضح، وتكلف جلى، يحملونه هم ولا تحتمله آيات الكتاب المبين؛ لأن التفسير يبقى جهداً بشريًا منسوبًا لصاحبه، بكل ما للبشر من نقص وبعد عن الكمال، وإن كان عدد منهم قد جاوز الصواب، فإن أعداداً أوفر قد وفقت فى ذلك أيما توفيق. ولم تكن أخطاء بعض المفسرين محصورة فى شرح دلالة بعض الإشارات الكونية فقط، فهنالك عدد من كتب التفسير الذى استشهد بالإسرائيليات الموضوعة، أو امتلأ بالعصبيات المذهبية الضيقة، وغير ذلك مما لا يقبله العقل القويم، والصحيح المنقول عن رسول الله ﷺ وعن أصحابه المكرمين والتابعين، ولا يرتضيه المنطق اللغوى السليم، فالمعتزلة على سبيل المثال - لا الحصر - قد حاولوا فى تفاسيرهم إخضاع الآيات لمبادئهم فى العدل والتوحيد وحرية الإرادة والوعد والوعيد وإنكار الرؤية وغيرها، وتعسفوا فى ذلك أيما تعسف. والشيعة - على اختلاف فرقهم - قد دفعتهم المغالاة فى حب آل البيت إلى التطرف فى تأويل بعض الآيات القرآنية تأويلاً لا يحتمله ظاهر الآيات، ولا السياق القرآنى، ولا القرائن المنطقية المختلفة. وكذلك المتصوفة والإشاريون - فهم على الرغم من تسليمهم بالمأثور من التفسير، وقبولهم للمعنى الذى يدل عليه اللفظ العربى السليم- يسمحون لأنفسهم باستنباط معان للآيات تخطر فى أذهانهم عند التلاوة وإن لم تدل عليها الآيات القرآنية الكريمة بطريق من طرق الدلالات المعروفة فى الاستعمال العربى للغة وطرائق التعبير فيها.

أما المنحرفون من أتباع الفرق الباطنية وإفرازاتها القديمة والحديثة (كالقرامطة والبابية، والبهائية، والعلوية النصيرية، والقاديانية الأحمدية، والإسماعيلية،

والدرزية وغيرها) فتمتلئ تفاسيرهم بالانحرافات التى تنطق بالتعسف والافتعال، ومحاولات تطويع القرآن لمبادئهم المضللة فى تكلف ملحوظ.

فهل معنى ذلك أن يتوقف علم التفسير عند حدود جهود السابقين من المفسرين ـ على فضلهم ـ وفضل ما قدموه لخدمة فهم القرآن الكريم فى حدود المعرفة المتاحة فى أزمنتهم؟ ـ بالقطع لا؛ لأن القرآن الكريم أنزل للناس ليتدبروا آياته، ويفهموا دلالاته، ويعيشوا معانية، ويتخذوه دستوراً كاملاً، ونظامًا شاملاً لحياتهم، وهذا لا يتأتى بالوقوف به عند جهود السابقين. علمًا بأن كتب التفسير تحوى تراثًا دينيًا، وفكريًا وتاريخيًا لهذه الأمة لا يمكن التضحية به، حتى ولو كانت به بعض الأخطاء أو التجاوزات، إلا إذا كان القصد الواضح هو التحريف، وهو أمر لا يصعب على عاقل إدراكه.

من كل ما سبق يتضح لنا أن حجج المضيقين فى رفض تفسير الإشارات الكونية فى كتاب الله على ضوء ما تجمع اليوم لدى الإنسان من معارف بالكون وعلومه هى كلها حجج مردودة، فالكون صنعة الله، والقرآن هو كلام خالق الكون وواضع نواميسه، ولا يمكن أن يتعارض كلام الله الخالق مع الحقائق التى أودعها فى خلقه، إذا اتبع الناظر فى كليهما المنهج السليم، والمسلك الموضوعى الأمين، فمن صفات الآيات الكونية فى كتاب الله أنها صيغت صياغة معجزة يفهم منها أهل كل عصر معنى من المعانى فى كل آية من تلك الآيات الدالة على شيء من أشياء الكون أو ظواهره أو نشأته أو إفنائه وإعادة خلقه، وتظل تلك المعانى تتسع باتساع دائرة المعرفة الإنسانية فى تكامل لا يعرف التضاد، وهذا عندى من أعظم جوانب الإعجاز فى كتاب الله، ومن هنا كانت ضرورة استمرارية النظر فى تفسير تلك الآيات الكونية، وضرورة مراجعة تراجمها إلى اللغات الأخرى بطريقة دورية. أما آيات العقيدة والعبادة والأخلاق والمعاملات فقد صيغت صياغة محكمة يفهم دلالتها كل مستمع إليها مهما قلت ثقافته أو زادت؛ لأن تلك الآيات تمثل ركائز الدين الذى هو صلب رسالة القرآن الكريم.

أما الآيات المتعلقة بذات الله وصفاته، وبالآخرة وبالملائكة والجن وبحياة البرزخ، وحساب القبر، وبالبعث والحساب والجنة والنار وغير ذلك من الأمور

الغيبية غيبة مطلقة فلا يملك المسلم إلا الإيمان بها، والتسليم فى فهمها لنص القرآن الكريم أو للمأثور من تفسير المصطفى ﷺ؛ لأن الإنسان لا يمكن له أن يصل إلى عالم الغيب المطلق إلا ببيان من الله الخالق أو من خاتم أنبيائه ورسله ﷺ، وذلك لأن قدرات عقل الإنسان المحدودة، وحواسه المحدودة لا يمكن لهما اجتياز حدود عوالم الغيوب المطلقة مهما أوتى الإنسان من أسباب الذكاء والفطنة، ومن هنا كان امتداح القرآن الكريم للذين يؤمنون بالغيب.

ثانيًا: موقف الموسعين فى التفسير العلمى للقرآن الكريم

يرى أصحاب هذا الموقف أن الإشارات الكونية فى القرآن الكريم قد قصدت لذاتها، أى لدلالاتها العلمية المحددة، مع التسليم بوجوب استخلاص الحكمة والعبرة منها، والوصول إلى الهداية عن طريقها. وانطلاقًا من ذلك فقد قام أصحاب هذا الموقف بتبويب آيات الكونيات فى كتاب الله، وتصنيفها حسب مختلف التصانيف المعروفة فى مختلف مجالات العلوم البحتة والتطبيقية، ثم اندفعوا فى حماسهم لهذا الاتجاه إلى المناداة بأن القرآن الكريم يشمل جميع العلوم والمعارف. ولا بد لحسن فهم تلك الإشارات الكونية فى كتاب الله من تفسيرها على ضوء اصطلاحات تلك العلوم، ثم زاد البعض بمحاولة إثبات أن جميع حقائق العلوم البحتة والتطبيقية التى استخلصها الإنسان بالنظر فى جنبات الكون هى موجودة فى القرآن الكريم استنادًا إلى قوله ـ تعالى: ﴿**مَّا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِن شَيْءٍ**﴾ [الأنعام: ٣٨].

وقوله ـ عز من قائل: ﴿**وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ**﴾ [النحل: ٨٩].

وهذا فى رأينا موقف مبالغ فيه، فالسياق القرآنى فى الآيتين السابقتين لا يتمشى مع ما وصلوا إليه من استنتاج؛ لأن هاتين الآيتين الكريمتين تشيران إلى رسالة القرآن الأساسية، وهى الدين بركائزه الأربع الأساسية: العقيدة، والعبادة، والأخلاق، والمعاملات، وهى القضايا التى لا يمكن للإنسان أن يضع لنفسه بنفسه فيها أية ضوابط صحيحة. وهى التى استوفاها القرآن استيفاء لا يقبل إضافة، أما قصص الأمم السابقة، والنبوءات المستقبلية، والإشارات الكونية، والقضايا

التربوية، والنفسية، والإدارية، والاقتصادية وغيرها مما جاء به القرآن الكريم، وبخاصة الإشارات إلى الكون ومكوناته فقد جاء بنماذج منها فقط تشهد لله الخالق بطلاقة القدرة على الخلق وإفنائه وإعادته من جديد، كما تشهد على وحدانيته المطلقة فوق جميع خلقه. وربما كان هذا الموقف الموسع من الأسباب الرئيسية التى أدت إلى تحفظ المتحفظين من الخوض فى تفسير الآيات الكونية الواردة فى كتاب الله على أساس من معطيات العلوم البحتة والتطبيقية، أو التعرض لإظهار جوانب الإعجاز العلمى فيها.

ثالثا: موقف المعتدلين فى التفسير العلمى للقرآن الكريم

يرى أصحاب هذا الموقف أنه مع التسليم بأن القرآن الكريم هو فى الأصل كتاب هداية ربانية، أساسها الدعوة إلى العقيدة الصحيحة، والأمر بالعبادات المفروضة، والحث على الالتزام بمكارم الأخلاق، وعلى التعامل بين الناس بالعدل والإحسان، أى أنه دستور كامل للحياة فى طاعة خالق الكون والحياة. ومع التسليم كذلك بأن الإشارات الكونية الواردة فى كتاب الله قد جاءت فى معرض التذكير بقدرته المطلقة، وبديع صنعه فى خلقه، وشمول علمه، وكمال صفاته وأفعاله، إلا أنها تبقى بيانًا من الله خالق الكون ومبدع الوجود، ومن أعلم بالكون من خالقه..؟

من هنا كانت تلك الإشارات الكونية كلها حقًا، وكانت كلها مُنسجمة مع قوانين الله وسننه فى الكون، وثابتة فى دلالاتها - مهما اتسعت دائرة المعرفة الإنسانية - فلا تعارض ولا تناقض ولا اضطراب، وصدق الله العظيم القائل: ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾ [النساء: ٨٢].

من هنا أيضًا كان واجب علماء المسلمين فى كل عصر من العصور إعادة مدارسة تلك الآيات الكونية، والاستفادة بكل أنواع المعارف المتاحة فى تفسيرها، وإظهار جوانب الإعجاز فيها، تأكيدًا لإيمان المؤمنين، ودعوة ناجحة لغير المسلمين باللغة التى يفهمونها؛ ودحضًا لافتراءات المفترين، وتثبيتًا للحقيقة الراسخة: أن القرآن كلام الله العزيز الرحمن الرحيم.

ومن هنا كذلك كان التسليم بأن تلك الإشارات الكونية لم ترد فى القرآن الكريم بهدف التبليغ بالحقيقة العلمية؛ لأن الحكمة الإلهية قد اقتضت ترك كل معرفة غير أصول الدين مجالاً مفتوحًا لاجتهاد المجتهدين، يتنافس فيه المتنافسون، ويتبارى فيه المتبارون، أمة بعد أمة، وجيلاً بعد جيل، إلى أن يرث الله ـ تعالى ـ الأرض ومن عليها، فلو أن الإرادة الإلهية قد ارتضت بسط الكون بكل حقائقه كاملة أمام الإنسان، لانتفت الغاية من الحياة الدنيا، وهى دار ابتلاء واختبار، ولاختفى ذلك الغيب الذى يشد الإنسان إليه، ويشد جميع حواسه وكل قواه العقلية والفكرية، ولتبلدت تلك الحواس والقدرات، ولمضت حياة الإنسان على الأرض رتيبة كئيبة بائسة، جيلاً بعد جيل، وعصرًا بعد عصر، بغير تجديد أو تنويع أو إبداع، وسط عالم يتميز بالتغير فى كل أمر من أموره، وفى كل لحظة من لحظات وجوده، هذا فضلاً عن أن العقل البشرى عاجز عن تقبل الحقائق الكونية الكلية دفعة واحدة، وأنه محتاج فى فهمها إلى شىء من التدرج فى الكشف، وفى استخراج الأدلة، وفى إثبات وتكامل معطياتها على مدى أجيال متعاقبة.

● ويستدل أصحاب هذا الموقف بالحشد الهائل من الإشارات الكونية فى كتاب الله، وبمطالبة القرآن الكريم للإنسان دومًا بتحصيل المعرفة النافعة على إطلاقها، وهذه أولى آيات القرآن العظيم تأمر بذلك وتحدد وسائله، وتحض على التأمل فى الخلق، بل وتشير إلى حقيقة علمية لم تكتشف إلا بعد ذلك بقرون طويلة ألا وهى «خلق الإنسان من علق»، وهى حقيقة لم يتوصل إليها الإنسان إلا بعد اكتشاف المجاهر المكبرة فى القرنين السابع عشر والثامن عشر الميلاديين، وفى ذلك يقول الحق ـ تبارك وتعالى: ﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِى خَلَقَ (١) خَلَقَ الإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ (٢) اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ (٣) الَّذِى عَلَّمَ بِالْقَلَمِ (٤) عَلَّمَ الإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾ [العلق: ١ ـ ٥].

● ويستدل أصحاب هذا الموقف المعتدل على ذلك أيضًا بما يقرره القرآن من مسئولية الإنسان عن حواسه وعقله، وما يفرضه من حسن استخدامهما فى التعرف على الكون، واكتساب المعارف النافعة منه، وتوظيف ذلك فى حسن فهم كتاب الله، حيث يقرر الحق ـ تبارك وتعالى ـ مسئولية الإنسان عن حواسة، وذلك بقوله

فى محكم كتابه: ﴿إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَٰئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْؤُولاً﴾ [الإسراء: ٣٦].

● كما يستدلون برفض القرآن للتقليد والجمود على الآراء الموروثة الخاطئة، والحكم بالظن والهوى، ومطالبته الإنسان دومًا بتأسيس الأحكام على الدليل العقلى الذى لا يقبل النقض، وهذه كلها من أخص خصائص المنهج التجريبى فى دراسة الكون وما فيه. كذلك يستشهدون بتكريم القرآن الكريم للعلم والعلماء - بمن فيهم من علماء الكونيات - فى العديد من آيات الذكر الحكيم نختار منها قول الحق - تبارك وتعالى: ﴿هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ﴾ [الزمر: ٩].

وقوله - عز من قائل: ﴿يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ﴾ [المجادلة: ١١].

وقوله - سبحانه وتعالى: ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لا إِلَٰهَ إِلاَّ هُوَ وَالْمَلائِكَةُ وَأُولُوا الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لا إِلَٰهَ إِلاَّ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [آل عمران: ١٨].

وقوله: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ [فاطر: ٢٨].

والآية الأخيرة قد وردت بعد استعراض لكثير من المشاهد الكونية، مما يؤكد أنها تشمل علماء الكونيات، إن لم يكونوا هم المقصودين بها مباشرة، فالآية تنطق: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ (٢٧) وَمِنَ النَّاسِ وَالدَّوَابِّ وَالأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ كَذَٰلِكَ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ﴾ [فاطر: ٢٧-٢٨].

● كذلك يستشهد أصحاب هذا الموقف المعتدل بمطالبة القرآن الكريم للإنسان - فى تشديد واضح - بالنظر فى كل ما خلق الله، وهذه أوامره صريحة جلية نختار منها قول الحق، تبارك وتعالى: ﴿قُلِ انظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ [يونس: ١٠١].

﴿ أَوَلَمْ يَنظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ ﴾ [الأعراف: ١٨٥].

﴿ قُلْ سِيرُوا فِي الأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ﴾ [العنكبوت: ٢٠].

﴿ وَفِي الأَرْضِ آيَاتٌ لِّلْمُوقِنِينَ (٢٠) وَفِي أَنفُسِكُمْ أَفَلا تُبْصِرُونَ ﴾ [الذاريات: ٢٠ ـ ٢١].

﴿ أَفَلا يَنظُرُونَ إِلَى الإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ (١٧) وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ (١٨) وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ (١٩) وَإِلَى الأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ ﴾ [الغاشية: ١٧ ـ ٢٠].

● وينتصر أصحاب هذا الموقف المعتدل لموقفهم بما ينعاه القرآن الكريم على الغافلين عن التفكير فى آيات السماوات، والأرض وذلك فى كثير من آياته التى منها قول الحق، تبارك وتعالى: ﴿ وَكَأَيِّن مِّنْ آيَةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ ﴾ [يوسف: ١٠٥].

ووصفه لهؤلاء الغافلين بأنهم كالأنعام بل هم أضل، وتقديره بأن جزاءهم جهنم عقابًا لهم على إهمالهم نعم الله التى أنعم بها عليهم، وذلك فى قول الله ـ تعالى: ﴿ وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لاَّ يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لاَّ يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لاَّ يَسْمَعُونَ بِهَا أُوْلَئِكَ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُوْلَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ ﴾ [الأعراف: ١٧٩].

● ويستشهدون على ضرورة توظيف المعارف العلمية المتاحة لفهم دلالة الآيات الكونية فى كتاب الله بربط القرآن دومًا بين الإيمان بالله والنظر فيما خلق الله، من مثل قوله ـ تعالى: ﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِن مَّاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ [البقرة: ١٦٤].

وقوله ـ عز من قائل: ﴿إنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَاتٍ لأُوْلِي الأَلْبَابِ (١٩٠) الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلاً سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾

[آل عمران: ١٩٠ ـ ١٩١].

وقوله ـ سبحانه وتعالى: ﴿وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ﴾ [الأنعام: ٧٥].

وقوله: ﴿لَخَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ﴾ [غافر: ٥٧].

● ويستشهد المنادون بضرورة توظيف المعارف العلمية في تفسير الآيات الكونية في كتاب الله بالإشارة إلى أن القرآن الكريم ـ في استعراضه لأمور الكون ـ يتناول كليات الأشياء، تاركًا التفاصيل لاجتهاد الإنسان، ولكنه في نفس الوقت ينبه باستمرار إلى جوانب مهمة في أشياء مثل الكم والكيف وهما من أسس العلوم التجريبية، الكم الذي يتعلق بالحجم والكتلة وبالزمان والمكان، وبدرجات النمو والاندثار وغيرها يتمثل في كثير من الآيات القرآنية التي نختار منها قول الحق: ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ عِندَهُ بِمِقْدَارٍ﴾ [الرعد: ٨]، وقوله ـ سبحانه: ﴿قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا﴾ [الطلاق: ٣]، وقوله ـ عز من قائل: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ﴾ [القمر: ٤٩] وقوله ـ تعالى: ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيرًا﴾ [الفرقان: ٢]، وقوله ـ سبحانه وتعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّاهُ فِي الأَرْضِ﴾ [المؤمنون: ١٨].

وبخصوص الكيف بمعنى هيئة الأشياء وتركيبها ومسبباتها، ومجرى الظواهر الكونية وحدوثها والسنن الإلهية وجريانها، فإن القرآن يشدد التنبيه عليها في مواضع كثيرة منها قول الله ـ تعالى: ﴿فَانظُرْ إِلَىٰ آثَارِ رَحْمَتِ اللَّهِ كَيْفَ يُحْيِي الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ [الروم: ٥٠].

وقوله ـ سبحانه: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ وَلَوْ شَاءَ لَجَعَلَهُ سَاكِنًا ثُمَّ جَعَلْنَا الشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلاً (٤٥) ثُمَّ قَبَضْنَاهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا﴾ [الفرقان: ٤٥ ـ ٤٦].

وقوله ـ عز من قائل: ﴿أَفَلَمْ يَنظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ﴾ [ق: ٦].

وقوله ـ تعالى: ﴿أَفَلا يَنظُرُونَ إِلَى الإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ (١٧) وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ (١٨) وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ (١٩) وَإِلَى الأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ﴾ [الغاشية: ١٧ ـ ٢٠].

● ويستشهد أصحاب هذا الموقف المعتدل كذلك على ضرورة توظيف المعارف العلمية في تفسير الآيات الكونية بتأكيد القرآن الكريم أن لكل شيء في هذا الكون فطرته السوية التي فطره الله عليها، والتي تخصه وتميزه، وهي قاعدة أساسية من قواعد المنهج العلمي التجريبي في الكشف عن حقائق هذا الكون ومكوناته وسنن الله فيه، ونقرأ في ذلك قول الحق ـ تبارك وتعالى: ﴿رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَىٰ﴾ [طه: ٥٠]. وقوله سبحانه: ﴿الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّىٰ (٢) وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَىٰ﴾ [الأعلى: ٢ ـ ٣].

وأن هذه الفطرة ثابتة، لا تتغير ولا تتبدل لقول الحق ـ تبارك وتعالى: ﴿لا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ﴾ [الروم: ٣٠].

وأنها خاضعة لقوانين مطردة، لا تتخلف ولا تتوقف إلا بإذن الله، وأنه لولا ثبات تلك الفطرة واطراد القوانين التي تحكمها ما تمكن الإنسان من اكتشاف أيّ من أمور هذا الكون، وأن القرآن يصر على تسمية تلك القوانين بالحق، وعلى أن الكون وما فيه «خلق بالحق»، ويطالب الإنسان بالتعرف على ذلك الحق والتزامه، فالتنزيل ينطق بقول الله ـ تعالى: ﴿مَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلاَّ بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ [الأحقاف: ٣].

وقوله سبحانه: ﴿أَوَ لَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنفُسِهِم مَّا خَلَقَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلاَّ بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى وَإِنَّ كَثِيراً مِّنَ النَّاسِ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ لَكَافِرُونَ﴾ [الروم: ٨]. وقوله ـ عز من قائل: ﴿خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ بِالْحَقِّ يُكَوِّرُ اللَّيْلَ عَلَى النَّهَارِ وَيُكَوِّرُ النَّهَارَ عَلَى اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لأَجَلٍ مُّسَمًّى أَلا هُوَ الْعَزِيزُ الْغَفَّارُ﴾ [الزمر: ٥].

وقوله ـ تعالى: ﴿هُوَ الَّذِى جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُوراً وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَلِكَ إِلاَّ بِالْحَقِّ يُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ [يونس: ٥].

وقوله ـ سبحانه: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لاعِبِينَ (٣٨) مَا خَلَقْنَاهُمَا إِلاَّ بِالْحَقِّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ﴾ [الدخان: ٣٨ـ٣٩].

● كذلك فإن الذين يرون ضرورة توظيف المعارف العلمية فى تفسير الآيات الكونية الواردة فى كتاب الله وفى الاستشهاد على الإعجاز العلمى لتلك الآيات يتصرون لذلك بأن أكثر من أربعين سورة من سور القرآن الكريم البالغ عددها ١١٤ سورة تحمل أسماءً لبعض أشياء الكون وظواهره، ويستشهدون بعرض القرآن للعديد من القضايا التى هى من صميم العلوم التجريبية من مثل خلق السماوات والأرض، واختلاف الليل والنهار، واتساع الكون، وفتق السماوات والأرض، وبدء السماء بدخان، وخلق الحياة من الماء وفى الماء، واستعراض مراحل الجنين فى الإنسان، وغير ذلك كثير مما لا يوفيه فى هذا المقام حصر، ولكن تكفى الإشارة إلى آيات قليلة منها من مثل قول الحق ـ تبارك وتعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلا يُؤْمِنُونَ﴾ [الأنبياء: ٣٠].

وقوله ـ عز من قائل: ﴿ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ﴾ [فصلت: ١١].

وآيات الكتاب الحكيم فى كل ما عرضت له من أمور الكون تتميز بمنتهى الدقة فى التعبير، والشمول فى المعنى والدلالة، وبالسبق الإخبارى بحقائق لم يتيسر للإنسان إلمام بها إلا فى العقود المتأخرة من القرن العشرين. وهذا بالقطع يشكل صورة من صور الإعجاز لم تتوفر لجيل من الأجيال من قبل.

وخلاصة القول أن القرآن الكريم يزخر بالعديد من الآيات التى تشير إلى الكون وما به من كائنات (جمادات وأحياء) وإلى صور نشأتها ومراحل تكوينها، وإلى العديد من الظواهر الكونية التى تصاحبها، وقد أحصى الدارسون من مثل هذه

الآيات حوالى الألف آية صريحة، بالإضافة إلى آيات أخرى عديدة تقرب دلالاتها من الصراحة، مما يبلغ بالآيات الكونية إلى سدس آيات القرآن الكريم تقريبًا. ويقف المفسرون من هذه الآيات الكونية مواقف متعددة فمنهم المضيّقون والموسّعون ومنهم المعتدلون. فالمضيّقون يرون أن تلك الإشارات لم ترد فى القرآن لذاتها، وإنما وردت من قبيل الاستدلال على قدرة الله - تعالى - وإبداعه فى خلقه، وقدرته على إفناء الخلق وإعادته من جديد، ومن ثم فلا يجوز تفسيرها فى ضوء من معطيات العلوم الحديثة؛ وذلك بدعوى انطلاق الكتابات العلمية من منطلقات مادية، منكرة لكل ما هو فوق المدرك المحسوس. أما الموسّعون فيرون أن القرآن الكريم يشتمل على جميع العلوم والمعارف، ولا بد لحسن فهم ذلك من تفسيره على ضوء ما تجمع لدى الإنسان من رصيد علمى خاصة فى مجال العلوم البحتة والتطبيقية، ومن ثمّ فقد قاموا بتبويب آيات الكونيات فى كتاب الله وتصنيفها حسب التصانيف المعروفة فى مختلف مجالات تلك العلوم، وتميز ذلك بشىء من التكلف الذى أدى إلى رفض المنهج والوقوف فى وجهه.

أما المعتدلون فيرون أنه مع التسليم بأن الإشارات الكونية فى القرآن الكريم قد وردت فى معرض التذكير بقدرة الله، وبديع صنعه فى الخلق وفى الاستشهاد على قدرته - سبحانه وتعالى - على الإفناء والبعث، فإنها تبقى بيانًا من الله، خالق الكون ومبدع الوجود ومن ثم فهى حق مطلق. ولا غرابة إذن من انسجامها مع قوانين الله وسننه فى الكون، ومع معطيات العلوم الحديثة عن حقائق هذا الكون. كذلك فإنهم يرون أنه مع التسليم بأن تلك الإشارات لم ترد فى القرآن الكريم بهدف التبليغ المباشر بالحقيقة العلمية؛ لأن الحكمة الإلهية قد اقتضت ترك ذلك لاجتهاد الإنسان على مر الزمن، إلا أنها تتميز بالدقة المتناهية فى التعبير، والإحاطة فى الدلالة والشمول فى المعنى، بحيث يدرك فيها كل جيل ما يتناسب مع مستوياتهم الثقافية، وما وصلوا إليه من علوم، ثم إن تلك الدلالات تتميز كلها بالسبق إلى الحقيقة الكونية قبل أن تدرك الكشوف العلمية شيئًا منها بقرون طويلة، وهذا فى حد ذاته يمثل الإعجاز العلمى للقرآن الكريم الذى هو أحد أوجه الإعجاز العديدة

فى كتاب الله. ولكنه يبقى من أنسبها لعصر التقدم العلمى والتقنى الذى نعيشه تثبيتًا لإيمان المؤمنين، ودعوة للجاحدين من مختلف صور المشركين والكافرين والضالين، فى زمن تحول العالم إلى قرية كبيرة، ما يحدث فى أحد أركانها يتردد صداه فى بقية أرجائها، ولا يأمن أهل الحق أن يصيبهم ما أصاب الأمم الضالة من عقاب، أو أن يجرفهم تيار الحضارة المادية فيذيبهم فى بوتقتها، وبذلك يخسرون الدنيا والآخرة. وطوق النجاة فى الحالتين الاعتزاز بالإسلام العظيم، والتمسك بالقرآن الكريم الذى يتجلى إعجازه العلمى فى عصر العلم الذى نعيشه يومًا بعد يوم، وإلى أن يرث الله ـ تعالى ـ الأرض ومن عليها.

* * *